سَاعة حَرِجَة منْ يَومٍ عَصيب

كنا نشيع جنازة الشهداء الأربعة الذين قتلهم جنود الاحتلال الانجليزي في المظاهرة الكبرى التي قامت في اليوم الثامن من شهر إبريل سنة 1919 واشترك فيها علماء الأزهر وقساوسة الأقباط ورجال القضاء والمحاماة وضباط الشرطة والجيش وطلبة المدارس والمعاهد وموظفو الدولة والشركات وأعضاء الجمعية التشريعية وتجار القاهرة وشيوخ القبائل وسائر الطبقات من العمال والصناع والباعة، ومن ورائهم جميعًا أرتال السيارات والعربات تحمل السيدات والأوانس. وتعرض لها الأستراليون الغلاظ بالرصاص، ورد عليهم المتظاهرون العزل بالطوب، فقُتِلَ منا أربعة وجُرِحَ كثيرون. وتفرق هذا الجمع الحاشد الحاقد ليجتمع في ضحوة اليوم التالي ليشيع جنازة شهدائه ويتحدى ببسالته نذالة أعدائه.

ولم يكد المشيعون يبلغون ميدان القلعة حتى وجدوا الطريق إلى مقبرة (الإمام) مسدودًا بكتل من الجنود الحمر في أيديهم السلاح وفي عيونهم الشر، فتركوا النعوش تمر وحجزوا من خلفها السيل الدافق من الناس، وانهالوا عليهم دعسًا بسنابك الخيل، وطعنًا بأسنة البنادق، وترويعًا بطلقات الرصاص، فتدافع من تدافع، وتراجع من تراجع، وتمزقت الجموع المذعورة في كل طريق.

ووجدنا أنفسنا في حي السيوفية نختفي تارة ونظهر، ونسرع حينًا ونبطئ، وصفير الرصاص تسمعه من كل اتجاه، وفزع الناس تراه في كل مكان، حتى دفع بنا الطريق إلى شارع عبد العزيز فإذا بنا في وسط معركة دامية بين الشعب والإنجليز، فيها المتاريس على مدارج الطريق، والخنادق على أفواه الأزقة، والناس مستبسلون في الدفاع، يتلقون بصدورهم رصاص الإنجليز والهنود من الشوارع، ورصاص الأرمن واليهود من البيوت. فتسللنا لواذًا إلى المسالك الضيقة المتشبعة، فتسكعنا فيها طويلا حتى قرت الفورة وهدأت الحركة وتفرق الجمعان. وآن لنا أن نستريح قليلاً من الفزع والإعياء فدخلنا قهوة (نيوبار) بميدان الأوبرا.

كنا ثلاثة أحدنا الأستاذ يوسف الجندي رحمة الله عليه وكان قد لجأ منذ أيام إلى القاهرة فارًا من القوة الأسترالية التي احتلت مدينته (زفتى).

وكانت زفتى كسائر مدن الوادي وقراه قد رفعت علم الثورة، فدمرت السكة الحديدية، وقطعت المواصلات التلغرافية والتليفزيونية، وتألفت بها لجنة لقيادة الثورة برئاسة الأستاذ الجندي، فأعلنت استقلال المدينة بشئونها السياسة والإدارية، وانضوى إليها مأمور المركز والذين معه من رجال الشرطة.

وتأدى الخبر إلى السلطة العسكرية البريطانية فجهزت إلى زفتى قوة من الجنود الأستراليين فحاصرتها، واستعد الأهلون للدفاع فأعدوا البنادق، وحفروا الخنادق، وأقاموا السدود، وتهيأ الأستراليون للهجوم فنظموا القوة وصوبوا المدافع وشرعوا الأسنة، وأوشكت الواقعة أن تقع لولا أن تدارك الخطب مأمور المركز فنصح لأهل المدينة أن يسالموا ولا يقاوموا فانتصحوا بقوله، ودخل الجنود زفتى، وهمهم الأول أن يقبضوا على أعضاء لجنة الثورة فلم يجدوا في القوم من يرشد إليهم، وكان يوسف حاكم زفتى قد توقع هذه العاقبة فتزيا بزي الفلاح وخرج من المدينة المحاصرة بليل، ومضى على وجهه ينتقل من قرية على قرية حتى دخل القاهرة ونزل على أصدقائه الأدنين ومن أخصهم الأستاذ محمد فريد أبو حديد، وظل مطلوبًا إلى المحكمة العسكرية حتى أفرج عن سعد وتألف الوفد.

أما أنا فكنت يومئذ ألبس الجبة والقفطان وأُدرس الأدب العربي في المدرسة الإعدادية الثانوية التي أسسها المغفور له الشيخ عبد العزيز جاويش، وكان طلابها يربون على الألف وأكثرهم ممن أخرجوا من مدارس الحكومة لوطنية السلوك أو علو السن، فلما حان حين الثورة كانوا هم وطلاب مدرسة الحقوق أول من جمعوا لها الحطب وأوقدوا فيه النار، ومن هاتين المدرستين تألفت اللجنة التنفيذية للطلبة وكان عدد أعضائها خمسة وعشرين، وكان عملي في هذه اللجنة أن أشارك من بعيد في تحرير المنشورات الثورية التي كانت توزعها سرًا في أنحاء البلاد، وكنت أحمل منها دائمًا صورًا مخطوطة أو مطبوعة.

وبينما كنت أقرأ على صاحبيَّ مسودة منشور جديد ونحن جلوس إلى إحدى الموائد الداخلية، إذ حاصر الإنجليز القهوة من كل جانب وأمروا الناس ألا يتحركوا، فالقاعد لا يقوم، والقائم لا يقعد. وأخذوا يفتشون عن الأسلحة والأوراق وبدأوا

التفتيش من خارج القهوة، وكان معي ورق ومع يوسف مسدس، والعثور في جيوبنا على هذا وذاك عريضة اتهام صريحة إلى المحكمة العسكرية البريطانية، وإذا شهد خطي عليَّ بأني أحرض المؤمنين على القتال، وأثبت التحقيق أن يوسف هو (إمبراطور زفتى) الهارب، كان الحكم الذي لا دافع له ولا رحمة فيه.

سارع الجالسون إلى جيوبهم أثناء الفزعة المفاجئة فألقوا بمسدساتهم على الأرض في القهوة بعيدًا عن الموائد، وأخفى بعضهم ما معه منها في (الطاولات) وأطبقوها على الأقشطة والزهر، واحتل الجنود القهوة ليراقبوا حركات الجلوس أثناء هذه (العملية)، وكان المرحوم يوسف قد أخرج مسدسه من جيبه ثم أعجلته الحال فلم يملك أن يرده إليه ولا أن يلقيه عنه فوقفت به يده تحت المنضدة، وحاولت أن أجد مخرجًا من هذا المأزق المهلك فانحنيت قليلاً على المائدة ومددت يدي فأخذت المسدس وغيبته في جيبي، ثم تململت في كرسيَّ كأنني أريد أن أريح جسمي بوضع آخر.

ولم تغب هذه الحركة عن عين الجندي المراقب فأقبل عليَّ والغضب في وجهه يزمجر بكلام لم أفهمه. ونظر إليَّ فلم أقل شيئًا، ونظر إلى الأرض فلم يجد شيئًا، فوقف على رأسي وقفة السياف يتربص بي حكم القدر، وخشعت الحركة في القهوة وعَمَّ الصمت، وجاشت الهموم في الصدور وزاد القلق، وشغلتني رهبة الموقف عن التفكير فيما نحن فيه وفيما نصير إليه، وفيم يفكر السائر الأعزل إذا دهمه قطاع الطريق، أو الأسير المقيد إذا أحدق به جيش العدو؟ إن الأمل الوحيد الذي كان يشيع في اضطراب نفسي، ويشع في ظلام يأسي، هو أن العمامة ربما توهمهم أني من رجال الأزهر، وهم على قسوتهم يظهرون شيئًا من الرحمة برجال الدين.

وجاء دورنا في التفتيش، ففتش الضابط صاحبي تفتيشًا دقيقًا فلم يدع جيبًا من جيوب الجاكتة والبنطلون إلا مر عليه بيديه، ثم أشار إليَّ أن أقف فوقفت ممتقع اللون واجف القلب، ووقف الرجل أمامي لحظة لا يتكلم ولا يتحرك، حار في أمري، كيف يفتش ثوبي، وأين يجد جيبي؟ إنه يعرف جيوب (الأفندية) لأنها كجيوبه، أما جيوب (المشايخ) فلا يعرف أين تكون. أتكون في الأعلى أم في الأسفل، أم تكون في الخلف أم في الأمام؟.

وكان لابد للضابط أن يخرج من حيرته وسكونه، فاكتفى بأن مر يديه مرًا خفيفًا فوق صدري وتحت إبطي، وكان المخبأ لو علم يتدلى على ركبتي! ثم ابتسم وانصرف إلى غيري!.

* * * * *

وانتهت (الكبسة) بأن أمر جنوده فالتقطوا المسدسات المطروحة على الأرض وخرج بهم إلى قهوة أخرى.

وتنفسنا الصعداء وانفجرت صدورنا بالتشهد !.

وكنا كلما جرنا الحديث إلى هذا الحادث نقول: إننا مدينون بحياتنا أو بحريتنا لذلك القفطان المبارك! وهذا الدَّين هو الحسنة الوحيدة التي أذكرها لهذا الزي؛ وكفى بها حسنة !.